عاشوراء والإحياء العاشورائي ودورهما في صناعة عناصر القوة المجتمعية

تختلف المجتمعات كثيرًا فيما بينها. توجد مجتمعات تفتقد الى العديد من عناصر القوة المجتمعية، سواءً من ناحية هويتها، وطبيعة هذه الهوية، أو من ناحية حس الانتماء ومنسوبه لديها، أو من ناحية وعي الذات والهوية والدور، أو حس المسؤولية، أو من ناحية القيم والمبادئ التي تلتزم بها، أو الثقافة التي تُستمد من تاريخها، وقيمها، ومبادئها، وعقيدتها...

في المقابل توجد مجتمعات تمتاز بالعديد من عناصر القوة تلك، من ناحية مجمل القيم الأخلاقية والمبادئ الدينية، التي قد تكون تجلت في ملحمة واقعية، استولدت دينامية فعالة ونشطة، تسهم في بقاء تلك القيم والمبادئ، وزرعها في النفوس، وإحيائها في القلوب. مما يؤدي الى إيقاظ الوعي، وتعزيز الهوية، وحس الإنتماء، والشعور بالمسؤولية، وروح الجماعة، وتهيئة البيئة المجتمعية لتقوية البعد الروحي والمعنوي، ورفع مكانة البعد القيمي والأخلاقي، واعطاء تلك المجتمعات العديد من عناصر القوة كالاستعداد للتضحية، والشهادة في سبيل القيم والمبادئ السامية..

ويمكن أن نعرض هنا – كنموذج لذلك – تلك المجتمعات، التي ترتكز في جانب مهم من ثقافتها ووعيها وقيمها على عاشوراء، وما يستولده فيها ولديها ذلك الإحياء العاشورائي ومعانيه وثقافته.

حتى يمكن القول، إن من أهم الأسباب التي ساهمت في قوة تلك المجتمعات وبقائها، رغم ما تعرضت له في التاريخ، وما تتعرض له في الحاضر؛ هو ذلك الإحياء العاشورائي، وذلك الاهتمام بعاشوراء، وما يترتب على ذلك من توفير لجملة من عناصر القوة، التي تمنح تلك المجتمعات ولو بعضًا من هويتها، وانتمائها، وملحميتها، وثقافتها، وقدرتها على الاستمرار، والتحمّل، والبناء، والعطاء، ومواجهة جميع التحديات، والأخطار، التي تتعرض لها بروح الصبر، والوعي، والثبات.

وهذا ما يستدعي منا محاولة تلمس أهم عناصر تلك القوة المجتمعية، التي تستفاد من عاشوراء، والإحياء العاشورائي:

1- <u>تجلي القيم في الواقع:</u> تطفح عاشوراء بتلك القيم الأخلاقية والمعنوية، التي حوتها مدرسة أهل البيت(ع)، كالصبر، والثبات، والعزة، والإباء، والتضحية، والعطاء، والإخلاص، والاستقامة، وغيرها

الكثير من القيم في مختلف المجالات الأخلاقية، والإصلاحية، والاجتماعية.. والتي تهب تلك الواقعة قدرة استثنائية على الاشعاع القيمي، والتأثير التربوي في مختلف المجالات.

لكن ما يميز تلك القيم في عاشوراء، أنها لم تبق مجرد تعاليم نقرأها، ومواعظ نسمعها. وإنما أضحت – بفعل الواقعة وتجلياتها – قيمًا حيّة في الواقع، وماثلة أمامنا في الميدان، نراها بأم العين –عين البصيرة– كما نقلها إلينا التاريخ، وعرضتها لنا السّير.

وهذا ما وهب لتلك القيم ومعانيها قدرة كبيرة على التأثير والتغيير، والنفوذ الى القلوب. مما أسهم ويسهم في مدّ تلك المجتمعات بواحدة من أهم عناصر تلك القوة المجتمعية، والتي هي وجود تلك المنظومة من القيم، التي تجلت في الميدان، ونزلت الى الواقع، مما أكسبها تلك المصداقية، وقوة الفعل والتأثير في ثقافة المجتمع ووجدانه.

بل يمكن القول، إنه إن كانت حياة المجتمعات تقاس بمدى حضور القيم المعنوية والأخلاقية الصحيحة لديها، فإن عاشوراء والإحياء العاشورائي يسهم في حضور تلك القيم بقوة وفاعلية، وفي رفع مكانتها، وإعطائها مرتبة رفيعة في وعي تلك المجتمعات، وثقافتها، ووجدانها.

2- <u>الإحياء العاشورائي وروح الجماعة:</u> يسهم الإحياء المجتمعي العام في عاشوراء في تعزيز تلك القوة المجتمعية، من حيث أنه يمنح تلك المجتمعات روح الجماعة أكثر فأكثر، ويقوي فيها الشعور الجماعي، عندما تجد أن تلك المجتمعات بجميع أطيافها وفئاتها، قد احتشدت حول قضية واحدة تجمعها، والتفت حول مأساة واحدة تقرّب بين قلوبها، والتقت في مدرسة رائدة لتنهل من تعاليمها وقيمها وثقافتها. عنيت بذلك قضية عاشوراء، ومأساة الحسين، ومدرسة أهل البيت(ع).

وليس فقط الإحياء المجتمعي والجماعي العام هو الذي يعزز الشعور الجماعي والحس المجتمعي، بل يمكن القول أيضًا إن قيم عاشوراء تسهم في ذلك من خلال مضامينها، التي تجلّت في كربلاء، وظهرت في أحداثها. وهو ما يجعل من المناسبة العاشورائية واحدة من أهم الروافد الثقافية والتربوية، التي تعزّز اللحمة الاجتماعية، وتقوي روح الجماعة، التي هي من أهم عوامل القوة التي تحتاجها مجتمعاتنا، والتي يعني فقدانها أو ضعفها وجود أكثر من منفذ يمكن استغلاله لتفريق تلك المجتمعات، واللعب على انغام اختلافها وخلافاتها. كما حصل كثيرًا في التاريخ، وكما يحصل الآن في أكثر من مجتمع ومِصر.

3- الإحياء العاشورائي وحس المسؤولية: حسّ المسؤولية الفردية والمجتمعية، وتقوية الشعور بتلك المسؤولية، هو من أهم ثمار الإحياء العاشورائي، وتعاليم عاشوراء ونتائجها.

تروي السيرة العاشورائية مشاهد تلك المأساة، التي حصلت مع الإمام الحسين وأهل بيته وأصحابه، وجميع أحداثها. وهي تروي ضمن ذلك مواقف الكثير من الافراد والمجتمعات، التي ساهمت في حصول تلك المأساة، أو التي أدى تقاعسها وتخاذلها الى حصولها. حيث تتجه التعاليم العاشورائية بسهام النقد واللوم الى جميع أولئك الذين قصروا وتخاذلوا، بأن فعلهم هذا هو الذي تسبب بحصول ما حصل في عاشوراء.

إذن هو انعدام الوعي بالمسؤولية، وفقدان الشعور بالمسؤولية، هو الذي أدّى الى كربلاء، والى وقتل الحسين(ع) وأهل بيته وأصحابه.

وعليه، يصبح تحصيل الوعي بالمسؤولية والشعور بها، هو إحدى نتائج وأهداف السيرة العاشورائية، وتعاليم عاشوراء. سواء على المستوى الفردي، أو الاجتماعي العام. بل يمكن القول إن ما يستفاد من عاشوراء هو توجه الشعور بالمسؤولية بشكل أساس الى تلك القضايا الاجتماعية، التي ترتبط بشكل جوهري بالشأن العام، والوقوف بوجه الظلم في مختلف المجالات.

واذا كان الشعور بالمسؤولية الفردية والاجتماعية أحد أهم العوامل، التي تمنح المجتمعات قدرة على الإصلاح وإقامة العدل، ومواجهة الفساد والظلم، والتصدي الواعي لجميع الأخطار والتحديات؛ يمكن القول عندها إن الإحياء العاشورائي هو أحد أهم المسارات المنتجة لعامل القوة ذاك، لما يؤدي إليه هذا المسار من شعور بالمسؤولية، ولما يعززه من حس المسؤولية في روح تلك المجتمعات، ووجدانها، ونفوس أفرادها.

4- البعد الملحمي الموسوعي وتوحيد المجتمعات: تتميز عاشوراء ببعدها(الملحمي) والذي يختزن مضامين مختلفة عاطفية ووجدانية، وقيمية وأخلاقية، واجتماعية وسياسية، ودينية وتاريخية...حيث اجتمعت كل تلك المضامين، واندمجت فيما بينها، لانتاج ذلك النموذج الملحمي، الذي تختلط فيه العِبرة مع العَبرة، والدمعة مع الفكرة. والذي تقدم فيه القيم على جناح العاطفة، وتطرح فيه المفاهيم معجونة بالشعور باللوعة والحرقة.

هي الملحمة العاشورائية، التي تمتلك تلك القدرة الكبيرة على التأثير، والتعليم، والتربية، وتحريك الوعي، وتنمية الثقافة، مما يسهم في توحيد الكثير من المفاهيم المجتمعية لدى العديد من تلك

المجتمعات، ويعمل على تقريب الكثير من الأنساق التربوية والقيمية لديها، ويؤدي الى تقليص الفوارق في مختلف الأنماط الثقافية لديها. عندما ينهل الجميع من معين تلك الملحمة العاشورائية، ويستقي منها قيمه، وثقافته، ومفاهيمه. وهذا ما يؤدي الى تزويد المجتمع بواحدة من أهم عناصر القوة، عندما تتقلص تلك الفوارق في الوعي، والرؤية، والمفاهيم، والمضمون الثقافي. وعندما يحتشد الجميع حول نموذج ملحمي واحد في فكره، وتاريخه، وثقافته، وقيمه.

وخصوصاً أن هذا النموذج الملحمي يتميز بلحن المظلومية، وصوت المأساة. فكما أن المأساة تجمع، فإن نداء المظلومية يملك قوته وتأثيره في التعاطف مع تلك القيم والمبادئ، والالتفاف حولها، والتفاعل معها.

5- صناعة الهوية والانتماء: قد يبدو واضحًا أن عاشوراء في تاريخها، وفكرها، وثقافتها، وأهدافها، وروحها، وعاطفتها ... تسهم في صناعة هوية تلك المجتمعات وانتمائها. أي إن تشكل الوعي المجتمعي، والثقافة المجتمعية، والوجدان الجمعي؛ كل ذلك لن يبقى بمعزل عن عاشوراء، وتعاليمها، وتأثيرها، وثقافتها. وما يتركه ذلك من أثر في صناعة الهوية والانتماء، والاعتزاز بتلك الهوية، والانتماء اليها.

ومن الواضح أن الانتماء الجمعي، بمقدار ما يكون قويًا من ناحية الأسباب والأسس التي يقوم عليها؛ بمقدار ما يكون ذلك عامل قوة لتلك المجتمعات، التي تملك ذلك الانتماء. فكيف اذا كان ذلك الانتماء متأثراً بعاشوراء، وتاريخها، وثقافتها، وروحها، وجميع معانيها. وما يستولده ذلك من شعور بالفخر والاعتزاز بتلك المعاني، وتلك الثقافة.

كما أن الهوية الثقافية والمجتمعية، بمقدار ما تحتوي على مختلف عناصر القوة؛ بمقدار ما يكون ذلك سببًا لقوة تلك المجتمعات، وقوة هويتها. فكيف إذا كان ما يسهم في صناعة تلك الهوية هو ذلك التاريخ العاشورائي الذي يفخر به، وتلك القيم العاشورائية التي يعتز بها، وتلك الملحمة الحسينية التي اضحت صفحة مشرقة في سجل التاريخ، وتحولت الى مدرسة عريقة ورائدة في التربية، والثقافة، والوعي، وصناعة الهوية والانتماء.

6-مواجهة التحديات والتغلب عليها: تختلف المجتمعات فيما بينها، من ناحية قدرتها على مواجهة التحديات والأخطار التي تواجهها على اختلافها، والتغلب عليها، تبعًا للاختلاف الثقافي، والتربوي، والقيمي، واختلاف الوعي لدى تلك المجتمعات.

هناك مجتمعات تميل الى الانهزام والتراجع سريعًا. او تكون عرضة أكثر للانهيار لدى مواجهتها لأي من التحديات والأخطار. كما أن هناك في المقابل مجتمعات تملك قدرة اكبر على المواجهة، وممارسة التحدي، وإدارة المخاطر، والتعامل معها.

هنا، عندما نأتي في هذا السياق الى ثقافة عاشوراء وقيمها، نجد أنها تختزن منظومة قيمية، تزود بها تلك المجتمعات، التي تتفاعل معها، وتحيا بها. من قبيل قيم الصبر، والعطاء، والثبات، والتضحية، والشهادة، وإباء الضيم، ورفض الذل والخنوع، و عدم التراجع عن القيم.

وهذا ما يعطي تلك المجتمعات العاشورائية قدرة أكبر على التحمل، واسترخاص البذل، والعطاء، والثبات على الأهداف والقيم. عندما تتحول مجمل عوامل الضعف أو الوهن في مواجهة التحديات الى عوامل قوة ووعي، من خلال ما تحدثه تلك الثقافة العاشورائية وقيمها من تغيير في الوعي والفهم والثقافة.

7-انقلاب القيم وموت المجتمعات: قد تتعرض العديد من المجتمعات لتفشي الظلم وانتشار الفساد، لكن يمكن لهذه المجتمعات، ولو بعد حين، أن تعمل على مواجهة ذلك الظلم والفساد لديها، وتطهير المجتمع منهما. طالما بقيت محافظة على سلامة الوعي، ووضوح البصيرة والرؤية لديها.

لكن الأخطر من تفشي الظلم وانتشار الفساد، هو أن يعتاد المجتمع على ذلك الظلم، وأن يألف ذلك الفساد. هنا يصبح الأمل بالتغيير والإصلاح شبه معدوم، خصوصًا إذا ما وصل الحال لدى تلك المجتمعات الى درجة انقلبت فيها المفاهيم، وتشوهت حقائقها. عندما يغدو الظلم عدلاً، والفساد إصلاحًا. وعندما يصبح المعروف منكراً، والمنكر معروفًا.

هنا تحتاج المجتمعات الى أكثر من صدمة من أجل أن تستيقظ من موت الوعي ذاك، وفقدان البصيرة، وانقلاب المفاهيم والقيم.هذا إن أمكن لتلك الصدمات أن تعيد إيقاظ الوعي، وإحياء البصيرة لديها.

وان من أشد الأسباب، التي تؤدي الى ضعف المجتمعات وموتها، هو تفشي الظلم، وانتشار الفساد، ووصولها الى درجة تتبدل فيها المفاهيم، وتنقلب لديها القيم. هنا تنهار المجتمعات، ويدب فيها الموت والضعف.

من هنا كانت ثورة الحسين(ع)، وكان لاحقًا ذلك الإحياء العاشورائي لقيمها ومفاهيمها. وخصوصًا تلك القيم، التي تدعو الى تحقيق الإصلاح ومواجهة الفساد، والى إقامة العدل ورفض الظلم؛ والتي تسهم في إعطاء هذه المفاهيم قيمة دينية إستثنائية، وبعدًا قداسويًا لافتًا، عندما تبين السردية العاشورائية أن الإمام الحسين(ع) قد ضحى بكل ما لديه، وأهل بيته، وأصحابه، من أجل تحقيق تلك القيم، وبلوغ تلك الأهداف.

وبناء على ما تقدم، يصبح الإحياء العاشورائي الهادف إلى تعزيز تلك القيم والمفاهيم، وحضورها في الوعي المجتمعي والثقافة المجتمعية؛ أحد أهم عوامل قوة تلك المجتمعات، عندما يعزز لديها ذلك الإحياء العاشورائي الهادف ثقافة الممانعة، والرفض للظلم، والحصانة أمام الفساد. بل الانشداد الواعي الى إقامة العدل ومقاصده، وتحقيق الإصلاح وأهدافه.

8-الموت وثقافة الشهادة: لقد تحدثنا في جملة القيم، التي يعمل الإحياء العاشورائي على تعزيزها، وتقوية حضورها في النسيج الثقافي المجتمعي، ووعيه، ووجدانه.

لكن قد يكون من الصحيح منهجيًا أن نفرد الحديث في بعض القيم على حدة لارتباطها الوثيق بموضوع بحثنا، أي دور الإحياء العاشورائي في صناعة القوة المجتمعية.حيث إن من أهم تلك الموضوعات (القيم) التي تتصل بذاك الموضوع، ثقافة الشهادة ومعانيها.

إن من أهم العوامل، التي يمكن أن تستغل لتهديد المجتمعات، وارغامها على التراجع عن مبادئها، وقيمها، وأهدافها؛ هو تخويفها بالمواجهة. وما يعنيه ذلك من موت، وفقدٍ للأموال والانفس، وتضحية بالغالي والنفيس، وسوى ذلك.

لكن عندما يصبح الموت شهادة، ويصبح الفقد وجد، والبذل ربح، والتضحية من أهم سبل الكسب والفوز والكرامة؛ هنا تصبح كل عوامل الضعف المتصورة عوامل قوة. حين تنتزع كل محاولات التخويف والتهديد من أمام تلك المجتمعات، لتستحيل الى عوامل قوة. عندما يتلاشى الخوف من الموت، وتحل محله ثقافة الشهادة. وعندما يغيب البخل في العطاء، وتحل محله ثقافة البذل والتضحية. وعندما يصبح الموت في سبيل القيم الحقة من أهم سبل الحياة وأسبابها.

الشيخ محمد شقير-استاذ الفلسفة في الجامعة اللبنانية